

النثر الفني عرني بالنشأة

استاذ الادب العربي
بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

للدكتور أحمد الحوفي

لست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب إليه المسيو مرسية من جهل العرب للنثر الفني حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، وأن أناقش ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المقفع كان أول نثر فني نشعر في قراخه بمتعة . وسأتابع في هذه المناقشة النثر الفني بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية إلى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

ثم تابعه الدكتور طه حسين ، فذهب إلى أن الشعر سبق النثر الفني ، ورأى أن مطلع القرن الثاني الهجري هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد نشأة النثر الفني ، وفي رأيه أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية هو عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع ، وأن كان قد عاد فأكد أصالة النثر الفني عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم .

ولست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب إليه المسيو مرسية من جهل العرب للنثر الفني حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، وأن أناقش ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المقفع كان أول نثر فني نشعر في قراخه بمتعة .

وسأتابع في هذه المناقشة النثر الفني بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية إلى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

ليس من شك في أن العرب قوم ذوو لسان وطلاقة

في أدبنا العربي ، وفي تاريخنا الاسلامي ، وفي ثقافتنا وحضارتنا وتراثنا بعامة ، في هذا كله قضايا ما زال كثير منها يعوزه البحث والتقصي والتصنيف والجلد .

ومن هذه القضايا نشأة النثر الفني .

فقد رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفني معرفة ذاتية ، بل نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان .

ومن هؤلاء المسيو مرسية ، إذ رأى أن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل ، وذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب واسجاع الكهان والامثال .

وعلى هذا بأنهم كانوا يعيشون حياة أولية بدائية ، وهي لا تقتضي نثرا فنيا ، لأن النثر الفني لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائم هذه الحياة الشعر ، لانه لغة العاطفة والخيال .

ولكننا ما زلنا فى حاجة الى نصوص نطمئن اليها فى التلليل على معرفة العرب للنثر الفني قبل الاسلام ، لان الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وان كان فقدان هذه النصوص التى نطمئن الى صحتها لا ينهض دليلا على جهالتهم بالنثر الفنى .

ومعلوم ان للعرب فى جاهليتهم امثالا كثيرة ، سلم بعضها من النسيان والاعفال ، ويقى الى ان دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الامثال المدونة نعرفه اليوم هو كتاب المفضل الضبي المتوفى سنة 178 هـ .

ولسنا نرتاب فى نسبة هذه الامثال الى العصر الجاهلي كما نرتاب فى الخطب والوصايا ، لان فى طبيعة الامثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها ويقاؤها وتداولها ، والناس كلون يتربدها والاستشهاد بها ، لانها تمثل تجارب سابقاتهم وآراءهم واحكامهم ولانها مرتبطة باحداث سابقة كثيرا ما يشاهدون نظائر لها ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ، ويرددونه فى الحدث الحاضر ، ثم انها تصور الوانا من اخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة فى تصويرها حينما قيلت ، ولا تزال صادقة فى تصويرها حينما يتمثل بها مردودها .

ولكن ما علاقة الامثال الجاهلية بالنثر الفنى ؟ .
فى كثير من هذه الامثال صفات ترتفع بها عن اللغة المالوفة فى الحياة المعتادة الى لغة فيها براعة وافتنان .

١ - فهي مرسله فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، فيه احيانا عناية بالجرس والتوازن والايقاع ، ولهذا نجد فيها سجعا وتمائلا فى عدد الكلمات ، مثل : « اندرعوا الليل ، فانه اخفى للويل » ومثل : « اليوم خمر وغدا امر » ومثل : « رب عجلة تهب ريئا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » ومثل : « ان البغاث بارضنا يستنسر » ومثل : « تجوع الحرة ولاتاكل بشديبها » ومثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

٢ - وهي احيانا تعتمد على مجاز او كناية او تشبيه او استعارة ، لتوحى بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ،

وبيان ، وانهم كانوا كلفين بروعة التعبير ، وجمال التعبير ، ورشاقة الاداء ، والتحرر من زلل الكلام وركاكة المقال .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » وفى قوله : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام » .

وقال انبى صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادجا ، ومعللا لمدحه وقدحه : « ان من البيان لسحرا » .

ولهذا كانت معجزة النبى من جنس ما تميزوا به ، وهو بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

- 2 -

نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة تعظمى فى اتبيان العربى ، شدة العرب بافتنانه ، فتظامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدورهم للاسلام ، ومن اصروا على الكفر والعناد .

اما الذين اسلموا فقد آمنوا بان القرآن منزل على النبى من عند الله .

واما الذين لم يسلموا فانهم ايقنوا بان القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، ولكنهم زعموا انه من صنع النبى ، وزعموا انه اوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بانه ساحر وبانه شاعر .

واذا كان القرآن ذروة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى كما يصفه الله تعالى ، فانه من الطبيعى ان يكون العرب قبيل الاسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة اعدتهم لان يخاطبوا بالقرآن ، فان الله تعالى يقول « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » . ثم ان الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله ففجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه والفوه وتباهوا به ما تحداهم هذا التحدي ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الامهال ، قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

كقولهم : « كل مجر في الخلا يسر » ، لان الذي يجري
فرسه وحيدا في الخلا ينخدع بسرعه ، فاذا سابق به
غيره تبين له بطؤه وضعفه ، ويضرب هذا المثل في
وصف المنور بما يتوهم في نفسه من ميزات
ومواهب او بما يمتلك من اشياء يظن انه وحده المالك
لها ، بغير ان يتبين ما عنده بما عند الناس .

وكقولهم في من يتنصل من خلق فيه اومن وصف ثابت
له ، فيدعى انه طاريء عليه ، كان يكون جبانا فيزعم
انه لم يجبن الا لمرض نزل به ، او يكون حقير النشأة
فيدعى ان الدهر هو الذي افقده مجده : « قبل النفاس
كنت مصفرة » ، لان المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة
شاحبة تزعم بعد الوضع ان نحولها وشحوبها اثر من
اثار النفاس .

وكقولهم في وصف من ارتكب عملا قبيحا يستحي
منه ، ويريد ان يستخفى من الناس : « جاء كخاصي
الغير » ، لان خصاء الغير عمل قبيح شاذ ان صح ان
يحدث فانه لا يقوم به الا الحقير .

3 - وقد يعتمد المثل على التشخيص ، اذ يضاف
صفات العقلاء على غير العقلاء ، من شعور وادراك وفهم
وتعقل ورزانة وتهور ، كقولهم في من يكتم السر : « اكنم
من الارض » ، كان الارض انسان يسمع سرا ويكتمه .

وكقولهم في وصف البخيل : « ابخل من كلب » ، كان
الكلب انسان يفهم ويحرص ويدخر ويمنع ويفعل كل
ذلك عن روية وتدبير .

وكقولهم في وصف الاحمق : « احمق من رجلة
لانه تنبت في مجاري السيل فيقتلها ، كانها صاحبة
راي وارادة واختيار ، وهي التي اختارت لنفسها هذا
المكان لتنبت فيه .

- 4 -

فاذا ما انتقلنا الى الخطابة وجدنا العرب يحتفون
بها منذ العصر الجاهلي ويفتخرون باجادتها ، ويمدحون
بالبراعة فيها ، كقول لبيد مقتخرا :

ومقام ضيق فرجته ببيان ولسان وجدل

وقول قيس بن عاصم المنقري في وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم

ببيض الوجوه مصاقع لسن

وقول ابي قريودة الطائي في رثاء ابن عمار الطائي
ان قاتليه حرموا الناس كرمه العظيم ومنطقه الجميل
الاخذ الذي يشبه الثوب الموشى باليمن :

يا جفنة كازاء الحوض قد هدموا
ومنطقا مثل وشى اليمنة الحبره

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لان الكتابة
كانت نادرة ، وانما كانوا يفكرون في مقالهم ، ويجبرونه
ويزينونه ، ثم يسترسلون ، يقول الجاحظ : « كان
الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتدارا عليه ، وثقة
بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك اذا
احتاجوا الى الراي في تعاضم التدبير ومهمات الامور
نلوه في صدورهم ، وقيدوه على انفسهم ، فاذا قومه
الثقاف ابرزوه محكما منقحا ومصفي من اللذائس مهذبا .

ومعنى هذا انهم كانوا يعدون احيانا الى الاعداد
والترتين والتنميق ، كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم جاء الاسلام فازدادت الخطابة رفعة وقوة ، وكثرت
الخطب المعدة التي تنبئ من قراتها مظاهر التأنق
والتجويد والترتيب ، سواء اكان الاعداد مكتوبا ام غير
مكتوب ، يدل على هذا ان عمر بن الخطاب قال انه كان
في يوم السقيفة قد زور - اعد وحبر - كلاما ليقونه ،
ولكن ابا بكر استمعله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان
عمر يريد ان يقول .

وروي ان عثمان بن عفان صعد المنبر ، فارتج عليه ،
فقال : « ان ابا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ،
وانتم الى امام عادل احوج منكم الى امام خطيب
وستاتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله » .

وهذا النص صريح في ان ابا بكر وعمر كانا يعدان
خطبهما ، او بعض خطبهما وفي ان عثمان قد فوجيء
وهو غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه ، لتجيء
على النسق الذي يرضاه ويرضونه .

وروي ان الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب
الراسبي - حينما ولوه رياستهم - ان يخطب فيهم ،
فقال « وما انا والراي الفطين ، والكلام القضيب » .

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراي في

خطبه ، ليخفي لثغته ، وليس لهذا تعليل الا انه كان يعد خطبه ، ويتمهل في اعدادها .

على أن طابع الاعداد والتأنق يتضح في كثير من خطب العصر الاموي ، كخطبة زياد بالبصرة وخطبتي الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير ، وخطبة أبي حمزة الشاري بالمدينة ، لان هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع مرتبة الافكار ، بارعة التعبير متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع معتمدة على ألوان من الخيال .

وهي بهذا كله قد استكملت خصائص النثر الفني التي قيل انها جدت فيما بعد على قلم عبد الحميد وابن المقفع .

- 5 -

لم تكن الكتابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة الى تنميق واحتفال خاص ، لان الغاية منها مقصورة على تبليغ الفكرة من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، ويدا في بعضها الاحتفال والتحبير ، كرسالته الى أبي موسى الأشعري في القضاء ، ثم اتضح التنميق أكثر في الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية وبين معاوية وزيد .

ولما مال الامر الى معاوية أنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عزيت دواوين الخراج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يتولاهما عرب حذقوا العربية كسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد بن يحيى .

ولاشك أنه كان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم في النهوض بالكتابة الفنية ، لانهم منقطعون لها ، ولان بقاءهم في الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

ولكن ليس معنى هذا ان النثر الفني لم يعرف الا في رسائل عبد الحميد لان كثيراً ممن كانوا يملون الرسائل او يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه ، فجاءت رسائلهم بليغة الصياغة طريفة الخيال ، كقول معاوية لزياد :
« اما بعد فانك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النعمة ،

ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من اصلها .

لا أم لك ، بل لا أبانك ، قد هلكت واهلكت ، وظننت انك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني ، هيهات ، ما كل نبي لب يصيب رايه ، ولا كل نبي رأي ينصح في مشورته ، أمس عبد واليوم أمير ، خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية .

وكقول زياد في رده على معاوية : « وجدتك كالغريق يغطيه الموج ، فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع ، طمعا في الحياة ، فاما سبك لي ، فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن ادعى سفيها ، لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء ، وأما تعبيرك لي بسمية فان كنت ابن سمية فانت ابن حمامة ، وأما زعمك انك تختطفني ، فهل رأيت بازيا يفزعه صفير القناiber ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ » .

وعلى هذا النمط كثير من الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية ، وبين الحجاج وقطرب ، وبين عبد الملك ومحمد بن الحنفية وغيرهم ممن كتبوا أو املوا قبل عبد الحميد وابن المقفع .

- 6 -

على أننا نتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح ، فنمقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبد الحميد وصفاته في الرسائل التي كتبت قبل ان يخط عبد الحميد سطورا .

فما لنا نجد ؟

نجد اتفاقا وتشابها في الجوهر ، ولا نجد اختلافا الا في الشكل والمظهر .

وذلك اننا نلاحظ ان عبد الحميد كان يطيل آنا ، ويوجز آنا ، مراعي ما يقتضيه المقام ، وما تتطلبه المناسبة ، ولكنه لم يبتدع هذا التنويع ، لان الرسائل التي كتبت قبله كانت تطول أحيانا وتقصر أحيانا ، مجارة للموضوع ومراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الافكار وتوليد المعاني أو تأكيدها بالترادف ، ولكن قد سبق

الى هذا كثير ممن املوا رسائل في العصر الاموي ،
وممن كتبوا بانفسهم .

ولقد يسترعى نظرنا أن عبد الحميد يجنح أحيانا
الى الخيال ليبرز افكاره ، ويجسم عواطفه ، ولكن هذا
ليس بجديد ، لأن في بعض الرسائل الاموية الوانا من
الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن أخيلة عبد الحميد ، أن
لم يفتن بها وأصالة ، كما نرى في رسالتي معاوية
وزياد ، وكقول قطري للحجاج : « لئن أبرز الله لي
صفحتك ، وأظهر لي صلمتك ، لتنكرن شعبيك ، ولتعلمن
أن مقارعة الابطال ليس كتسطير الأمثال » وكقول المهلب
بعد انتصاره على الازارقة : « فاعقب الله خير عاقبة ،
وجاوز بالنعمة مقدار الامل ، فصاروا بريئة رماحنا ،
وضرائب سيوفنا » .

وأنا كان عبد الحميد اعتمد على التائق والتجويد ،
لأنه كاتب مختص بالكتابة فإن كثيرا من رسائل العصر
اعدها كاتبوها وتائقوا فيها ونمقوها .

على أنني لست أنسى أن عبد الحميد كان يفصل
الجميل ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ،
ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع النفي لا
استكراه فيه وأنه كان يرتب افكاره في كثير مما يكتب ،
ولكنني أنكر أن هذه الصفات كلها محققة في كثير من
رسائل العصر الاموي قبل عبد الحميد .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ،
كتأنقه في البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام ،
وطالته في البدء بعبارات التحميد والثناء ، ولكن هذا
لا يصح أن ينهض ليليا على أنه أول من كتب في العربية

نثرا فنيا ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب
معرفتهم النثر الفني قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغي
أن ينصب على الاصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل
والحاشية والمظهر ، ولأن النثر الفني ما كان ليفقد
ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التائق والاطناب في مطالع
الرسائل وخواتمها ، وإنما كان يفقد خواصه الاصلية
لو أنه جاء خلوا من التجويد والتنميق وتوخي الجمال
والتأثير .

- 7 -

وأن فقد كان النثر الفني معروفا للعرب قبل
عبد الحميد .

وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب
عبد الحميد .

ثم جعل هذا النثر الفني يتطور ويترقى على السنة
العرب الذين أملا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ،
فلما قاربت الدولة الاموية نهايتها كان هذا النثر قد
شارف نضجه ، وكان عبد الحميد أول كاتب في الديوان
اشتهر بكتابته ، وذاع صيته ، وظهرت في آثار قلمه
خواص من سابقوه ومظاهر شكلية ابتكرها ونسبت اليه .
ومعنى هذا أن النثر الفني العربي لم يكن يوناني
النشأة ولا فارسي المولد ، بل أنه نشأ عريبا خالص
العروبة ، كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار
والامثال .

أما الطابع الفارسي واليوناني فقد تبين في النثر
الفني بعد ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ،
ونهلوا من أدب الفرس وعلوم اليونان .